جامعة المسيلة قسم التاريخ

دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: الاستشراق وتاريخ الوطن العربي المعاصر

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة الثانية: نشأة الاستشراق ومراحل تطوره

تمهيد: لعل من القضايا المهمة التي شغلت المهتمين بدراسة الظاهرة الاستشراقية، ما تعلق باعتماد فترة زمنية لتحديد انطلاق هذا الحقل المعرفي، والبحث أيضا عن الفضاء الجغرافي الأول الذي شهد ميلاد هذه الحركة، وعلى الرغم من المحاولات التاريخية العديدة التي خاضت في هذا الباب إلا أن باخرة البحث لم تستقر على مرفأ مرجعي جامع، ومن ثمة وجدنا أنفسنا أمام سيل من الأطروحات، بفوارق زمنية متباعدة، ويمكننا الإشارة إلى أهم هذه الآراء عبر هذا الاستعراض الموجز.

يذهب البعض إلى أن الغرب يؤرخ لبداية الظاهرة بالحديث عن بداية الاستشراق الرسمي حينما صدر قرار مجمع فيين vienne الكنسي بفرنسا في عام 1312م، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية، على غرار باريس، وأكسفورد، وبولونيا Bologna بشمال ايطاليا، وهي أقدم جامعة أوربية، ترجع للقرن الحادي عشر الميلادي.

ويذهب فريق آخر، إلى أن البدايات الأولى للاستشراق، ترجع إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، بينما يذكر المستشرق الألماني رودي بارت Rudi Paret، أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية في أوربا تعود إلى القرن الثاني عشر، حيث تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وظهر أول قاموس لاتيني عربي، ويتقاطع مع هذه الإحالة الزمنية، ما عبّر عنه المستشرق الفرنسي غوستاف دوجا Gustave Dugat 1824 – 1894م، الذي جعل عنوان كتابه: " تاريخ المستشرقين في أوربا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر ". الصادر بباريس عام 1858م.

وعلى الرغم من أن الاستشراق بهذا الاتجاه، يمتد بجذوره إلى ما يقرب من ألف عام، فإن مفهوم مستشرق Orientaliste لم يظهر في أوربا إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، فقد ظهر أولا بانجلترا عام 1779م، ثم بعد عقدين كان بفرنسا 1799م، وقد أدرج مفهوم الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية الموصوفة بالحذر في تبني المصطلحات عام 1838م، وتبعا لذلك، رأى البعض أن الاشتغال بالإسلام والحضارة الإسلامية موغل في القدم، وأما تبني المصطلح فلا يعدو أن يكون إقرارا بأمر واقع، وإطلاق وصف على دراسات كانت قائمة بالفعل منذ زمان.

يكاد يجمع المهتمون بهذا الحقل المعرفي، على أن بدايات هذه الحركة، قد نشأت في نهاية القرن العاشر ومطلع الحادي عشر الميلادي بفرنسا، وأن الراهب الفرنسي جربير دي أورلياك المتوفى عام 1003م، كان من أوائل المشتغلين بعلوم الشرق، وارتبطت باسمه بداية حركة الاستشراق،حيث رحل من فرنسا صوب اسبانيا زمن مجد الحضارة الإسلامية وهناك تعلم اللغة العربية ونال حظا من علوم الرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة ، حتى قيل بأنه كان من أوسع علماء عصره معرفة بعلوم العرب صار عام 1003م بابا الكنيسة بروما، واستطاع عبر منصبه الجديد أن ينشىء مدرستين لتعلم العربية وعلومها إحداهما بروما مقر البابوية والثانية بمسقط رأسه، ويرجع إليه الفضل في نقل الأعداد العربية إلى أوربا ومنها رقم الصفر الذي لم تكن تعرفه.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن كلمة " مستعرب "،كانت هي المستعملة قبل مصطلح "مستشرق " وقد أطلقت على غير العربي الذي يعيش في ظل دولة عربية، مثل المسيحيين الذين سكنوا الأندلس وأعلنوا انتماءهم للعرب وولائهم لحكمهم، والواقع، أنه من الطبيعي أن تظهر لفظة الاستعراب في الفترة التاريخية التي تمثل حالة الازدهار الثقافي والقوة الحضارية، فيكون التعلق بالحضارة الأقوى.

الاستغراب: من البديهي جدا أن يتساءل الإنسان، إذا كان هناك استشراق، فهل هناك استغراب بالمقابل والإجابة مزدوجة، فمن الناحية النظرية يفترض أن يكون الاستغراب موازيا للاستشراق، ومن ثمة يتعين اتجاه الشرقيين لدراسة الغرب من حيث الأوجه والكيفية التي مارسها الأخير، وهو ما ندعوه بالاستغراب الايجابي، غير أن ذلك في الواقع العملي لم يحصل.

لكن الاستغراب بالمعنى السلبي، لا أحد يستطيع إنكاره، ذلك أن الشرقيين قد استولت على عقولهم ونفوسهم فكرة تفوق الغرب وعلو مكانته، فاندفعوا يقلدونه في الأمور السطحية، من حيث مظاهر العيش ونمط السلوك.

مراحل الاستشراق: وعموما يبتدئ تاريخ الاستشراق منذ أن بدأت الدول الغربية تهتم بالإسلام كحضارة وكثقافة بعد أن حقق انتصارا كاسحا على المسيحية، وهدد عواصمها التاريخية وحصونها الثقافية وقلاعها الدينية، وبرزت الآثار الأولى لهذه النزعة لدى الكنيسة، وكانت الأندلس الموطن الأهم للفكر الاستشراقي الأول. (رحلة جربيرGerbert دي أورياك من فرنسا إلى قرطبة عام 967م، وبعد الاحتكاك ونهل المعارف انتقل إلى روما ليصبح في منصب البابا عام 999م تحت اسم سلفستر الثاني2 Silvestre)

وبرأي المستشرق يوهان فوك، فإن العصر الوسيط، قد شهد للعرب بأنهم ورثة العلوم القديمة وهو مصطلح كان يطلق على الطب والفلك والفلسفة والرياضيات، وأن هؤلاء العرب، قد شدّوا ببدائعهم أنظار الزائرين والمحاربين والمتتلمذين، الذين ارتادوا المشرق واسبانيا بدرجة سواء، وكانت العربية وقتها كانجليزية اليوم، لغة الرقي والمدنية، بوابة التخلص من الجهل والتخلف إلى بهو النور والمعرفة، وعلى مر الزمن، تحولت الرغبة من طلب العلم إلى مزيج من الإعجاب والامتنان، وقد حدثنا تاريخ الحركة عن صراع مرير بين هواة التقعر وطلب اللغة للغة، وبين أنصار التعلم لتحسس مواطن الحسن والجمال في آثار الآخرين، وكان الشعار المرفوع دوما وحتى وقت متأخر من القرن الثامن عشر الميلادي، هو تخليص الاستشراق من قبضة اللاهوت، وقد نشط العمل على أكثر من صعيد لاستنطاق الثقافة العربية الإسلامية، لاسيما بعد وفرة المراجع من مخطوطات مهاجرة ومسروقة، وكتب، وشهود عيان، وآثار باقية، بالإضافة إلى مذكرات وأعمال الرحالة والمستكشفين.

يعد القرنان التاسع عشر والعشرون عصر الازدهار الحقيقي للحركة الاستشراقية، ففي نهاية القرن الثامن عشر، وتحديدا عام 1795م قامت فرنسا بإنشاء مدرسة اللغات الحية الشرقية، وكان التركيز فيها على ما يمكن أن تسهم به تلك اللغات في تقدم الأدب والعلم، وقد أصبحت تلك المدرسة في عهد المستشرق دي

ساسي، أنموذجا لمؤسسة الاستشراق العلمي والعلماني لاسيما بعدما تخلص الاستشراق من اللاهوت في كل من فرنسا وبريطانيا خلال القرن الثامن عشر.